

علوم التربية والديداكتيك

ملاحظات تمهيدية

- يتم الحديث عادة بصيغة الجمع عن علوم التربية: وهذا لأن ظواهر التربية أعقد من أن تتم الإحاطة بها بواسطة علم واحد.
(فالظواهر التربوية يتداخل فيها ما هو نفسي، اجتماعي، بيولوجي...)
- التربية هي الحقل المعرفي الوحيد الذي يجمع بين المعالجة الوصفية والتفسيرية لظواهره، والمعالجة المعيارية.
- هذه الجوانب الفلسفية لا تكون دائما واعية، بل إنها كثيرا ما تشتغل بكيفية ضمنية :
(الأهداف التربوية الموازية)

أبدأ أولاً بتعريف علوم التربية:

إنها مجموعة من العلوم التي تهتم بالقضايا المرتبطة بالتربية: علم النفس التربوي / علم الاجتماع التربوي / فلسفة التربية / تاريخ التربية....

تهدف هذه العلوم أساساً إلى إنتاج المعارف العلمية اللازمة لكل ممارسة تربوية سليمة.

الباحثون في علوم التربية ليسوا معنيين مباشرة بالعلاقة البيداغوجية (ليسوا ممارسين فعليين)،
إنهم -مع الاحتفاظ بمسافة معينة- يحاولون إنتاج خطاب علمي حول هذه الممارسة.

إنهم -باختصار- يحاولون فهم الوقائع التربوية: دافعية التعلم / التفاعلات داخل الفصل / دور
العوامل السوسيوثقافية في تحصيل الأطفال...

تعريف الديداكتيك

عادة ما ينظر إلى الديداكتيك كمرادف لفن التدريس، أو كمجموعة من الطرائق والتقنيات التي من شأنها أن تسهل الاستيعاب عند المتعلمين.

غير أن الوضع الحالي للديداكتيك يشير إلى ما هو أبعد من ذلك. يعرفه كل من S. JOHSUA و : DUPINS

ديداكتيك مادة هو العلم الذي يدرس -بالنسبة لمجال محدد- :

- ظواهر التدريس.
- شروط تبليغ "ثقافة" خاصة بمؤسسة معينة.
- وشروط اكتساب المعارف من طرف المتعلم.

ولتعريف ديداكتيك الرياضيات يقول BROUSSEAU:

إنه "العلم الذي يهتم بإنتاج وتبليغ المعارف الرياضية، خاصة فيما يتميز به هذا الانتاج وهذا التبليغ عن هذه المعارف. إن ديداكتيك الرياضيات يدرس الكيفية التي بها تنتج المعارف الرياضية، وتبلغ، وتستعمل، من أجل إشباع حاجات أناس يعيشون في مجتمع معين."

في العلاقة بين الديداكتيك وعلوم التربية

منذ اللحظات الأولى لظهور ديداكتيك المواد، تم تعريفه كما لو أنه يهتم ضمن أنشطة التعليم و التعلم بما هو خاص بالمضامين (Contenus disciplinaires). وبالمقابل ينظر إلى علوم التربية كمجالات تتشغل أساسا بالجوانب العامة للتربية.

وإذا كان الأمر صحيحا -نسبيا- بالنسبة لعلوم التربية، في ارتباطها بالجوانب العامة. فإن التطورات الحالية، أملت على الديداكتيكيين توسيع اهتماماتهم، والانتباه إلى ما يتجاوز المضامين المعرفية. إذا أرادوا تحقيق أهدافهم في تسهيل التعلم والاكتساب.

أمثلة للجوانب العامة في التربية

نورد الآن أمثلة من أبحاث تبرز هذه الجوانب العامة:
مثال من علم الاجتماع التربوي.
و آخر من علم النفس التربوي.
وثالث من التواصل داخل الفصل.

علم الاجتماع التربوي:

يهتم علم الاجتماع التربوي بالعوامل الاجتماعية التي من شأنها أن تؤثر على المردودية المدرسية للمتعلمين. ومنذ أعمال Bourdieu و Passeron سنة 1964 و أعمال Beaudelot و Establet سنة 1971 أصبح واضحا أن الانتماء السوسيوثقافي للوالدين يلعب دورا كبيرا في النجاح المدرسي للمتعلمين

علم الاجتماع التربوي:

الأبحاث التي نشرت سنة 1965 تشير إلى أن نسب التعثر والفسل الدراسي تبلغ أعلى مستوياتها عند أطفال الطبقات غير المحظوظة. 73% من هؤلاء هم من أبناء عمال الفلاحة.

هذا ما دفع الباحثين بودلو وإسطابلي إلى اعتبار المؤسسة المدرسية أداة ايديولوجية، تستغلها الطبقات المهيمنة لإعادة إنتاج الطبقات الاجتماعية بكيفية تخدم دائما مصالحها. هذين الباحثين قسما نظام التعليم في فرنسا إلى شبكتين تخص كل منهما طبقات معينة. (réseau PP et réseau SS)

علم النفس التربوي:

يهتم أساسا بدراسة الآليات النفسية والعمليات العقلية التي يثيرها العمل التربوي. من بين مجالاته الرئيسية النمو النفسي ونظريات التعلم.

أشهر نموذج في مجال النمو النفسي نموذج بياحي الذي يقسم النمو العقلي والمعرفي عند الطفل إلى مراحل محددة استفادت منها التربية كثيرا.

مراحل النمو المعرفي عند بياجى:

- مرحلة الذكاء الحسى الحركى.
- مرحلة الذكاء الرمزى (ما قبل العمليات العقلية).
- مرحلة ذكاء العمليات الملموسة.
- مرحلة العمليات الصورية.

التواصل البيداغوجي:

يهتم التواصل البيداغوجي برصد أشكال وصيغ التواصل داخل الفصل وتأثيرها على تعلمات المتدربين، وكذا ببناء استراتيجيات التواصل الفعال.

في دراسة مهمة لـ "Maitre-élève: rôles institutionnels et représentation : Gilly تمثلات المدرس عن كل تلميذ هي التي تتحكم في تواصله وتفاعله معهم. كما أن هذا التمثل (الصورة) هو الذي يتحكم في مردودية التلميذ. ومن الأهمية بمكان بالنسبة للمدرسين أن يأخذوا هذا بعين الاعتبار.

خلاصة حول علوم التربية:

يتضح من الأمثلة التي أوردناها من العلوم الثلاثة السابقة، أن انشغالاتها لا تتعلق بمادة معينة ولا بمضمون معرفي خاص، وإنما بجوانب عامة تجد تطبيقاتها في جميع المواد، بل وحتى خارج الوسط المدرسي وفي مؤسسات تربوية مختلفة.

وبالعودة إلى الديداكتيك، فإن اهتمامه الأساسي يرتبط بما هو خاص بمضمون مادة معينة، وبكيفية تنظيم هذا المضمون وهندسته بشكل يجعله قابلاً للاستيعاب بسهولة من طرف المتعلمين.

غير أن المختصين - وهم يعملون على بناء الهندسات الديداكتيكية المناسبة حسب مضامين التدريس - اصطدموا بمشاكل جديدة.

الديداكتيك: مشاكل التركيز على المضامين:

الاقتصار الأبحاث في مجال الديداكتيك على المضامين المعرفية يطرح مشكلات كبيرة:

لعل أهم هذه المشاكل تتمثل في وعي المختصين، بأن مجرد التركيز على المضامين المعرفية لا يكفي لبناء علم إنساني جدير بهذا الاسم. وقد تشكلت هذه القناعة تدريجيا عقب دراسات فاجأت الأوساط العلمية والأكاديمية في فرنسا أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي.

هذه الدراسات كشفت عن أمور مهمة مكنت المختصين اليوم من بناء جهاز مفاهيمي خصب وغني، ومكن الديداكتيك من مكانة محترمة ضمن علوم الانسان.

بعض نتائج الدراسات: حسب « Pédagogie:dictionnaire des concepts clés »

أظهر بحث أنجز بين 75 و 80 أن نسبة مهمة من الفرنسيين البالغين، والذين تمكنوا من متابعة مشوار دراسي عادي، يعانون مع ذلك من نقائص وثغرات معرفية كبيرة في مجالات معرفية أساسية.

فقد تبين على سبيل المثال أن ما يقارب 14 مليون من الفرنسيين لا يزالون يعتقدون أن الشمس تدور حول الأرض. وأن نسبة مهمة من هؤلاء قد أتموا تعليمهم الثانوي العام أو التقني، بل إن 15% منهم ممن حصلوا على تعليم عال.

بعض نتائج الدراسات:

في نفس الإطار ظهرت دراسات قيمة أخرى أهمها تلك التي انحضرت
من طرف GORDON.A et de VECCHI.G

« Les origines du savoir: des conceptions
des apprenants aux concepts scientifiques

»

بعض نتائج الدراسات:

ضمن مختلف الدراسات التي يتضمنها هذا الكتاب، توجد واحدة تعتبر دالة جدا بالنسبة لموضوعنا وتتعلق بعملية الهضم عند الإنسان.

فقد طلب من أفراد من مختلف الأعمار أن ينجزوا رسما يفسرون من خلاله المسار الذي تقطعه الأغذية بعد تناولها.

النتائج بينت أن التصورات التي عند الراشدين، ممن أنهوا تعليمهم الجامعي في الرياضيات والفيزياء، وسبق لهم أن استفادوا في مشوارهم الدراسي من عدة دروس حول الهضم، لا تختلف كثيرا عن تلك التي عند الأطفال الذين لم يسبق لهم أن تلقوا أية دروس حول هذا الموضوع.

الديداكتيك: إعادة تشكيل المجال وبناء جهاز مفاهيمي جديد.

نتائج كل هذه الدراسات دفعت بالمتخصصين في الديداكتيك إلى التحرر من وهم شفافية المضامين المعرفية و الإقرار بأن كلا من المدرس والمتعلم - وهم يعالجون مضامين معرفية محددة- يطورون علاقات إبستمولوجية مع هذه المضامين، وأن هذه العلاقات تغير بدرجة كبيرة هذه المضامين.

لفهم هذه الدينامية: دينامية التفاعل بين المدرس ومضمون المعرفي والمتعلم نجح الديداكتيكيون في بناء جهاز مفاهيمي غاية في الخصوبة.

المفاهيم الاساسية: التمثلات أو تصورات المتعلمين:

في الدراسات السابقة، توصل الباحثون إلى أن الفشل في بناء المعرفة العلمية، يرجع إلى التصورات التلقائية للمتعلمين. فالمتعلم -وهو يعالج مضمونا معيناً- يجند معارفه السابقة لإعطاء معنى للمعلومة الجديدة. وفي حالة كون هذه المعارف خاطئة فإنها تكيف هذه المعلومة لتنسجم معها. كما أن هذه التصورات التلقائية قد تقاوم هذه المعارف الجديدة. ويبدو أن هذا ما حصل مع الأفراد في الدراسات التي صدمت الفرنسيين عند بداية الثمانينيات.

التمثلات أو تصورات المتعلمين:

ولهذا يوصي الديداكتيكيون اليوم -قبل تقديم أي مفهوم علمي جديد- بضرورة استخراج تمثلات المتعلمين التلقائية حول المفهوم الجديد.

فحص هذه التمثلات لتمكين المتعلمين من الوقوف على ثغراتها ونقائصها.

تقديم المعرفة العلمية الجديدة.

تكرار العملية عدة مرات.

مفهوم النقل اليداكتيكي:

يقصد بالنقل اليداكتيكي مجموع العمليات والمعالجات التي تخضع لها معرفة علمية معينة قبل أن تصبح قابلة للتدريس. تتم هذه المعالجات في مستويات مختلفة من واضعي المنهاج إلى المدرس. اتضح أن هذه العمليات تمارس تعديلات مهمة على هذه المعارف. تتضمن هذه العمليات صياغات مختلفة لنفس المفهوم حسب مستويات التدريس، كما تتضمن تبسيط المصطلحات واستحضار يسمى بالممارسات الاجتماعية المرجعية. **Pratiques sociales de référence.**

مفهوم النقل الـدـيـداكـتـيـكـي :

في عمليات التـكـيـيـف، هـذه يـوصـى بـما يـلي:
الـحـرص عـلى عـدم اخـتـزال المـعـارف المـقـدـمـة في قـوالب جامـدة و غير قابـلة للتـطـور.

الانتباه إلى عدم تحويل المتعلم للمعارف المقدمة له إلى معارف مطلقة.

عمليات النقل الـدـيـداكـتـيـكـي، إذا لم تتم بكيفية مناسبة، فإنها قد تعوق تطور المعرفة المكتسبة إلى معرفة عالمية فيما بعد.

مفهوم العقد الـدـيـداكـتـيـكي:

يقصد به مجموع القواعد الضمنية التي تنظم العلاقات والتفاعلات بين المدرس والمتعلمين. وهي التي تسمح ببناء مجموعة من الانتظارات والتوقعات المتبادلة بين أطراف العملية التعليمية. هذا العقد يدفع المتعلم عادة إلى الإجابة وفق ما يعتقد أن مدرسه يتوقعه منه « L'age du capitaine »

خاتمة:

أختم بما يلي:

الديداكتيك لم يعد -كما كان في بدايته- يهتم بتفصيل وتنظيم المضامين المعرفية وفقا لمخططات مسبقة. وإنما برصد ومراقبة كل العناصر والمتغيرات التي توجه التفاعلات الممكنة بين المدرس والمضمون المعرفي والمتعلم.

بداية المضامين المعرفية واستقلالها عن الأفراد والمؤسسات التي تنتجها وتروجها، أوهام ينبغي التخلص منها فوراً: قناعات ومعتقدات الأفراد، أهداف وثقافة المؤسسة، كلها عوامل تؤثر بدرجة كبيرة على إنتاج وتبليغ المعرفة.

بمعناه الجديد، ليس هناك تعارض بين الديداكتيك وعلوم التربية، وإنما تكامل مفيد ومثمر.

شكرا لكم جميعا.